من ليالى الفردوس

للدكتور زكى مبارك

لم يكن أول حب ، فما مرّت ساعة من نهار أو من ليل بلا وجد يعصف بقلبي فيزلزل وجودى ، وإنما كان أخطر حُبّ ، لأنه صادف قلبين كُتب عليهما الشقاء بالهوى لأول لقاء

ولم يكن لهذا الحب مقدمات ، على نحو ما تصنع الطبيعة فى إرسال البشير بالغيث ، أو النذير بالويل ، وإنما صُبّ علينا نعيمه وشقاؤه بلا وعد ولا وعيد ، فأصاب قلبَيْنا برجفة عاتية ستبقى لها نُدوب ، إن قُدّر من بلواها الخلاص ، ولا خلاص !

كنت أعرف أنها مِلك يميني أصرّفها كما أريد ، فأنقلها من الغرب إلى الشرق ، ومن الشّمال إلى الجنوب ، وكانت تعرف أنها ملأت قلبي فلا خوف من تعرُّضه لهوًى جديد ، ولو ساقته المقادير على يد جِنّية من جنيات باريس أو بغداد أو بيروت

وطاب لنا في بداية الهوى أن نتكاتم ، فقد كنا شبينا عن الطوق ، وكانت لنا تجاريب تجعل البَوْح من أخلاق الأطفال . وكيف نأمن جانبي وقد « وصلتها أخبار » تشهد بأني لا أقيم على عهد ، وأني أتخذ الحب وسيلة لدرس خلائق الملاح ؟

وكان أمرى فى الهوى كما قدّرت تلك البغوم ، فما نظرتُ نظرة جارحة إلا لأقتبس من أنوار الخدود شعاعاً ألوّن به مداد قلمى ، ولا تعرّضت لمكاره الغواية إلا لآخذ من جحيم الفتك جمرةً أذكى بها بياني

ثم كان حالى حال رائض الحيات فى مدينة الأقصر ، فما تاريخ ذلك الرائض ؟

هو رائض تطايرتْ أخباره إلى « لورد كرومر » فأحب ذلك اللورد أن « يختبر » تلك الأخبار ليكون من أمرها على يقين ، فقاده « الحاوى » إلى حية كان حَبَسها تحت حجر من الأحجار فى رحاب « وادى الملوك » ، وكانت تلك الحية تفهم عن « الحاوى » ما يريد ، فتصحو أو تنام وفقاً لما علّمها من الإشارات

ورفع الحاوى الحجر فثارت من تحته حيةٌ لم يرها من قبل ، حيةٌ لم تتلقّ عليه درساً من الدروس ، ولا تفهم أنه فى صحبة رجل كلّفته الدولة البريطانية حراسة منافعها فى مصر مفتاح الشرق !

وخاف الحاوى على حياته فلاذ بالفرار ، ثم عظُمتْ دهشته حين رأى لورد كرومر أقدر منه على الجرى فى طلب النجاة ، مع أن فى منطقته مسدّسين ، ومع أنه يمثّل دولة لها فى البر جيوش وفى البحر أساطيل !

كان حالى حال ذلك الرائض ، كنت ألهو وألعب بالملاح كما كان يلهو ويلعب بالحيات ، فكيف صار وكيف صرتُ ؟

لقد هرب فنجا ، أما أنا فثبتُّ فى مكانى لأصرع الحية أو تصرعنى ، وهل كانت حياتى إلا حومة نضال وصيال وقتال ؟

وفهمتْ الحية وفهمتُ أننا لم نكن إلا أرقمَين يتساوران ، ثم كانت الحرب بيننا سجالاً فلم أنج منها ولم تنج منى

هى اطمأنت إلى أنها سيطرت على القلب الذى استطاب العبث بقلوب الملاح

وأنا رضيتُ بأن تكون تلك الحية من مرضاى ، وهل من القليل أن تخضع الحية لحبك ، الحية النضناض التى تقتل من تشاء بأيسر نظرة وأهون لحَيح ؟

كانت أنياب تلك الحية أشهى إلى فى من « فَرْط الرُّمان » كما يُعيّر أهل سنتريس ، وكنا نرضَى ونغضَب بلا اقتصاد ولا احتراس ، فكان لنا فى كل لحظة شأنٌ أو شؤون ، وكان

فليت شعرى أىّ خلة أشرف من هذه العباءة ، وأى وسام أجل من هذه الثقوب . لقد أحسن الذى حفظوا سيف شامل وعباءة الأطرش فى المتحف الإسلامى من المسجد الأقصى ، وإنها لعبرة . ورأينا بعد مصابيح من آثار الأيوبيين ، وقدوراً عظيمة من آثار العثمانيين ، ونفائس أخرى لا يتسع لذكرها هذا المقال

ثم اطلعنا على دفتر الزيارة فرأينا توقيعات كثير من الزوار بينها خط الملك فيصل رحمه الله ، وقد كتب هذه الآية الكريمة (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) . وقد رأينا الآية نفسها مكتوبة على باب السكينة من آثار السلطان قايتباى .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

وجهها يبدُّ في وجهي من وقت إلى وقت ، كما تصنع السماء مع المحيط ، كانت ترضى فأظنها صارت ملكي إلى الأبد ، وكانت تغضب فأتوهمها ضاعت من يدي إلى آخر الزمان

ولكن الشقية في جميع أحوالها جميلة فتانة إلى أبعد حدود الجمال والفتون ، وكانت تعرف أن هواها أقسى وأعنف من القَدَر المكتوب ، وكانت فوق هذا وذاك تفهم أني أول وآخر من يعرف خفايا الأسرار لحسنها المكنون ، وكانت تفهم أني أدرك من أخطارها ما لا يدرك المصريون من أخطار قناة السويس ، وكان يروعها أن ترآني مبهوتاً أمام جسمها الفينان كما يُبهت عابد الشمس وقد تجلّت بطلعتها البهية عند الشروق

هل كان جمال هذه الشقية وهماً خلقه القلب الذي يطيب له التغريد فوق أفنان الجمال ؟

وكيف وقد زاحمني إلى قلبها المتمرد مئات الفحول ، فكنت بحمد الهوى أول سابق لا أول مسبوق ، ومن زعم أن له ذراعين أقوى من ذراعيَّ فقد اعتصم بحبل الزُّور والبُهتان

كانت نخلةً لا يميلها غير العواصف التي تثور عن وجداني . كانت امرأةً وقوراً لا يستخفّها غير النزل الذي يصدُر عن بياني

كانت في رزانة الجبال إلى أن رأيتُها فعرفتني ، وكنت قطعةً من ثلوج الشمال إلى يوم البلوى بروحها المقبوس من عذاب السعير ، فكيف صار الحب جدًّا من أعنف ضروب الجد ، وكان مزاحاً من ألطف فنون المزاح ؟

أنت يا شقية سبب شقائي ، وأنت السرّ في بلواي بالدنيا وبالوجود

ولكنك مع ذلك أشبه الأشياء بنُكت المداد الذي يتساقط حين أخلو إلى قلمي ، فمن قطرات المداد الأسود دوّنت أدبي ، ومن زفرات روحك الأهوج صفت روحي ، وبين الأدب والروح نَسبٌ وثيق

أنا القمر وأنتِ السحابة في ليلة من ليالي دمياط ، والنصر للنور ولو بعد حين

* * *

مالي ولهذا الحديث ؟ أنا أريد وصف ليلة من ليالي الفردوس مع تلك الحورية السمراء ، فكيف كانت تلك الليلة الفردوسية ؟

يجب أولاً أن أقول كلمة وجيزة أبين بها بعض خصائص المرأة الجميلة حين تصبح على جانب من التهذيب والتثقيف ، وحين يصبح في مقدورها أن تخوض بلباقة وبراعة في شجون من الأحاديث ، فهذه المرأة تخلع على موضوع الحديث عطراً رفيقاً يسري أريجه إلى عقل المحدث فيزيده حيوية إلى حيوية ، وهي تضيف إلى الحديث ألواناً لطيفة من الدعابة والدلال ، وإن كانت لا تقصد إلى الدعابة والدلال ، فالمرأة رقيقة بالفطرة والطبع ، وقد تبلغ نهاية الرقة حين تساجل رجلاً تميل إليه بالقلب والوجدان

وهنالك ظاهرة نفسية تستحق التسجيل ، فالمرأة تحاول الظهور باسم العقل ، ويسرها أن تجد من يقول بأن النساء أعقل من الرجال

وهل قلنا بغير ذلك ، يا ناس ؟

المرأة أعقل من الرجال ، بلا جدال ، فلتطلب من المناصب ما تريد !

وصاحبة الليلة الفردوسية من هذا الصنف ، فهي لا تكف عن المطالبة بمساواة النساء للرجال في جميع الميادين

ولكني أعارض . أعارض لأسمع صوتها البغُوم وهي تجادل وتناضل . وأعارض لأرى كيف يتلون وجهها الجميل حين تنفعل وحين تصرخ ؛ ولا غنى للمرأة عن الانفعال والصراخ

ما أجمل هذه الشقية حين تثور مطالبةً بحقوق النساء !

إنها ترفع ذراعها ، وتلوي وجهها ، ثم تحدق فيَّ لأقتنع !

وهل أقتنع إلا بعد أن أتمتع بهذه المجادلات ساعات وساعات ؟

لن أقتنع أبداً ، فلتحبسني في دارها لأسمع تلك الخطب اللطاف ، إلى أن أمل من النعيم فأقتنع ، ولن أمل وان أقتنع !

إن كان من الخيانة للحق أن نساعد النساء على الطغيان ، فأنا بإذن الهوى أول الخائنين !

ومن حسن الحظ أن خيانتي هينة الخطب ، لأن المرأة بعيدة عن عملي ، ولو تعرضت لي في عملي لدستها بقدمي ، فللرجولة وثبات تزلزل الجبال

إذا جدّ الجد فلن أخضع لهذه الجنية ولو كانت من جنيات الأورمان

وما الجد وما الحق بجانب سحر الجمال ؟

آمنت بك يا ربي وآمنت ثم آمنت ، فلولا لطفك لردتني هذه الجنية إلى أهواء يعجز عن تصورها الخيال

أنا أحبها لأنها أصدق مني . . . تعرضتُ للموت في حبها فتعرضت للفضيحة في حبي ، والفضيحة أفظع من الموت

ما أجلها حين تثور في المطالبة بمساواة النساء للرجال !

لو كان الأمر للهوى لمنحتها ما تريد ، ولكن العقل يساجلني من وقت إلى وقت ، فأثور على مطالب النساء

ما أنت أيها العقل ؟ ومتى أنجو من شرك ؟

* * *

مالي ولهذا الحديث ؟ ألم أقل إني أريد وصف الليلة الفردوسية ؟ طال الجدال حول حقوق المرأة فاقتنعتُ لأني شبعت من مجادلة الجنية السمراء ، ولأني رغبت في تلوين الأحاديث ، فدعوتها للمهادنة إلى حين

عند ذلك وقفتْ وقد احتضنت الكمنجة لتداعبها بأناملها اللطاف ، وهي أجمل ما تكون حين تقف ، لأن جمالها يرتكز في قامتها السمهرية :

أنا واللهِ هـــالك آيسٌ من ســـلامتي
أو أرى القامة التي قـد أقامت قيـامتي

ـــ ماذا تحب أن تسمع ؟

— أنا أحب أن أرى !

— أنت تعرف أني أبغض المزاح الثقيل

— وأنت تعرفين أني أبغض الجد اللطيف

— يظهر أننا أطفال

— نحن أطفال كبار ، والطفل الكبير هو الطفل اللوذعي ، لأن مطالبه مطالب رجال ، لا مطالب أطفال

— وماذا تطلب أيها الطفل اللوذعيّ ؟

— أطلب تغريدة تعبر بها الكمنجة عما أريد

ولكن الشقية رمت الكمنجة ، ومدت يدها إلى المكتبة فأخرجت كتاب « ليلى المريضة في العراق »

— تصفح الكتاب ، ثم اقرأ ما طوّق بعلامة الخطر ، وهي التأشيرة الحمراء

— إقرئي أنتِ

— أنا أحب أن أسمع صوت المؤلف ، لأتفوّق على من يتباهون بأنهم رأوا خط المؤلف

— كتاب ليلى لا يُقرأ ، وإنما يرتّل ، وصوتُك أندى في الترتيل

— أنا أحب أن أسمع صوتك في مواقف الصَّبَوات

عند ذلك تمثّل ماضيّ الجميل ، ماضي في ضيافة ليلى وظلماء ، ماضي الذي لم يظفر بمثله أي عاشق في أي زمان

وعند ذلك تمثل شقائي في بغداد ، وأي شقاء ؟

كنت أرجع من دروسي بدار المعلمين العالية أو محاضراتي بكلية الحقوق فأرى العربات محمّلة بأقوام يمضون إلى سهرات المساء ضاحكين حالمين ، وأراني أمضي إلى داري لأقضي الليل بين الورق والمداد

هل أنسى أني استهديت أحد أصدقائي عشاء في داره لأقول إني ذقت طعاماً في أحد بيوت العراق ؟

البيوت العراقية مفتحة الأبواب لكل زائر ، ولكني لم أهتد إلى هـذه الحقيقة إلا بعد أن طال عذابي بالوحشة والانفراد في ليالي بغداد

وفي تلك الأزمات القاسية سطرت كتاب ليلى المريضة في العراق .

تمثلت هـذه المتاعب لخاطري وأنا أرتل كتابي ، فانقلب الترتيل إلى نشيج ، ثم رفعت بصري فرأيت دموعاً تجاوب دموعي ، وهي الدموع الأبية العصية ، دموع الخريدة التي قهرها الحب على البكاء ، بعد طول التأبي والعصيان

— من صاحبة هذا الوحي إليك ؟

— هي ليلى

— غريمتي في العراق ؟

— عند القلب علم الغيب

— وماذا يقول قلبك ؟

— يقول : « قلبي مات ، قلبي مات »

— ولقلبك قلب ؟

— ولدموعي دموع !

— وما نصيبي عندك ؟

— هو أعظم نصيب ، وهو أخطر من أن يُنصَب له ميزان ، فذخائر الوجود لا تساوي قطرة واحدة من دموعك الغالية

— يفتنك بكائى ؟

— الدموع فوق الخدود أجمل من الأنداء فوق الورود

— ستنشر هذا الحديث فى مجلة الرسالة ؟

— وفى جميع المجلاّت

— وما ذا يقول الناس ؟

— وأين الناس ؟

— أنت تخاطر بمركزك فى المجتمع

— وأين المجتمع يا طفلتى الغالية ؟ لقد حاربت ألوفاً من الخلائق وحاربونى ، فهل هزمونى ؟ أنا لا أخاف غير الله ، وهو خوف متبعث عن الأدب ، وليس له أية صلة بالخوف الذى يفهمه عامة الناس ، ولو شئت لقلت إنى آمن جانب الله فلا أخوف منه أى عقاب

— هات السند من الكتب الدينية

— حياتى هى السند ، فقد تفردت بين أهل زمانى بالثورة على الناس ، ثم بقيت سيداً لا يمن عليه مخلوق

— ولكنك فقير ، بالقياس إلى المرائين

— كيف أكون فقيراً وأنت فى حيازتى ، أيتها الجنية السمراء ؟

— هل تبيعنى لتفتنى ؟

— وأين أجد المشترى ؟

— أنت تكايدنى !

— المكايدة لغةُ جنية الأورمان ، عليها غضبة الحب إلى آخر الزمان !

— ومن تلك الجنية ؟

— هى روح لطيف ، وإن لم أتمتع برؤية وجهها الجميل

— أتكون أجمل منى ؟

— جمالها فى الصوت ، وبصوتها فى الهتاف تقلت قلبى من مكان إلى مكان

— هى إذا غريمة جديدة ؟

— إن آذنك الغيرة فلن تظفرى منى بأى نصيب ، لأن الغيرة تفسد ما بين المرأة والرجل فساداً لا يُرجَى له صلاح

— كنت أحسب أن الغيرة دليل على قوة الحب ، وأنها منّة تطوق بها قلب الحبيب

— غيرة المرأة أثَرَةٌ وأنانية وتحكم وطغيان

— وغيرة الرجل ؟

— غيرة الرجل رفق وحراسة ومروءة وإيمان

— أوضح ثم أوضح ، لأن هذا الكلام يحتاج إلى إيضاح وإيضاح

— إسمعى يا طفلتى الغالية . إن الرجل يستطيع أن يصاهر من يشاء ، ولو شهد ماضيه بأنه كان من أهل العبث والمجون . ولا كذلك المرأة ، فإنها لا تجد خاطباً إلا إن شهد ماضيها وحاضرها بأنها من أهل التصون والعفاف

— هذا هو الظلم المبين

— هو ظلم ياطفلتى الغالية ، ولكنه ظلم لن يُرفع عن المرأة فى أى زمان

— الفجور الصريح لا يؤذيكم ، فكيف تؤذينا كواذب الشبهات ؟

— كان الأمر كذلك ، وسيكون لأننا أقوياء ، وحق الأقوى هو الأفضل ، ألم تقرئى قول لافونتين :

La raison du plus fort est toujours la meilleure

— وأنتم أقوى منا ؟

— الجواب حاضر ، فبينى وبينك فى السن عشرون سنة ، وأنت مع هذا تعجزين عن مصارعتى ، وأنا أشتهى أن تصارعينى

— ذوق هذا العصر لا يعترف بالقوة الجسدية

— القوة الجسدية هى الأساس فى جميع العصور

— وهل حصنتكم القوة الجسدية من الضعف ؟

— أى ضعف ؟

— الضعف أمام رقة المرأة

— هذا الضعف من شواهد قوة الرجل ، كما أن ضعف المرأة أمام فحولة الرجل من شواهد قوة المرأة

— أنت إذاً أضعف منى ، لأن خضوعك لى أقل من خضوعى لك

— خضوع الرجل للمرأة خدعة من خدع الحرب ، وأنا منتصر ، والمنتصر لا يحتاج إلى الخداع

— والنتيجة ؟

— النتيجة معروفة ، وهى أن النساء لا يصلحن لمساواة الرجال